بناء الوعي وتشكّل القيم

بحث مقدم لمؤتمر "المقاومة في معركة الوعي والذاكرة"

الشيخ شفيق جرادي

لقد قامت التجارب والتأملات والدراسات بجهود واسعة وعظيمة لبحث واقع العقل وحقيقة الذهن بفاعلياتهما الإدراكية والمعرفية.

وصُنّفت هذه المباحث ضمن أطر الفلسفة والعلم والتربية، حتى انقسمت حولها تيارات واتجاهات ومذاهب تكاد أن تكون متناقضة في أصولها ومنطلقاتها ما بين مثالية في الطرح تُغلِّب الذهن على المحيط والبيئة المجتمعية والطبيعية، إذ تعتقد أن الذهن أو العقل هو المنتج للواقع المحيط. وما بين مادية تعتقد أن العقل أو الفكر هو انعكاس للواقع الخارجي والبيئة المحيطة.

هذا وفي الوقت الذي انغمست فيه هذه المباحث بمقولات ومنهجيات تجريدية نظرية، أو تقنية أداتية أحيانًا كثيرة. فهي وإن لم تلحظ الشأن الإنساني في المعالجة بشكل مباشر، لكنها كانت محكومة بتصور قبلي أو بعدي حول الإنسان في حقيقته ودوره وموقعه من الوجود. والملفت في نتائج مثل هذه المباحث أنها قد أفرزت جملةً من قيم الترابط بين الذات وما خلف الذات أو بعدها، أثمرت تحولات حقيقية في سمات التشكل المجتمعي والحضاري.

بناءً عليه، لا يمكن فصل أي مبحث يتعلق بشكل أو بآخر بالإنسان، عن مندرجات قيم وانتظامات حياته النفسية والعقلية والمادية. وللسبب نفسه فإن البحث في الإنسان وقيمه لا يمكن فصله عن البحث في الدين، إذ الدين بطبيعته يتجه من الله إلى الإنسان أو من الإنسان نحو الله، وهذا التوجه في حركيته يقع فيه الإنسان موقعًا مركزيًا يُبنى عليه، ويُؤسَّس بموجبه.

لذا فإن أي محاولة لقراءة شؤون تتعلق بالإنسان هي قابلة للتشكّل ضمن شبكة استفادات علمية وفلسفية ودينية ومعرفية تقع على أرضية القيم الإنسانية وما يتولد عنها.

وبهذا الصدد فإن الكلام حول الوعي يدخل في صميم مثل هذا التشابك الذي أسلفناه إن من حيث المصدر أو منابع البحث أو تشكّل القيم أو غير ذلك.

معنى الوعي

تحدثت المصادر اللغوية في الوعي واعتبرت أن "الوعي هو الحفظ والتقدير وسلامة الإدراك"[1]، والواعية "وصف للمؤنث. ويقال: أذن واعية: حافظة"[2]، و"الوعي: الفقيه الحافظ الكيِّس"[3].

كما أن ابن منظور في **لسان العرب** ذهب إلى أن الوعي: حفظ القلب الشيء... حفظه وفهمه وقبله. وفي حديث ابن إمامة: لا يعذب الله قلبًا وعى **القرآن**؛ قال ابن الأثير: أي عقله إيمانًا به وعملًا، فأما من حفظ ألفاظه وضيَّع حدوده فإنه غير واع له..."[4]. هذا واعتبر أهل اللغة أن الوعي من الأوعية وما جمعته فيكون الوعي بذلك ما ضمته أوعية العقل والفهم والفؤاد.

انطلاقًا مما مرّ يمكن اعتبار أن الوعي تعبير عن مجموع أمور منها:

أ- **الحفظ**: وهو عبارة عن تلقٍّ لأمر خارجي يتم وضعه في وعاء الذهن كمعلومة تسترجعها الذاكرة كلما احتجنا إليها. أو يتلقاها وعاء القلب لتتشكل فيه ضمن منظومة المبتنيات النفسية والشعورية.

ب- **التقدير**: إن الوعي لا يكتفي بمجرد الحفظ وبناء العلاقة مع الذاكرة، بل هو يقوم بعملية تصنيف للمدخلات التي تتأتى الإنسان في عالمه المعرفي – من خارجه.

ج- **سلامة الإدراك**: إذ بعد التلقي والحفظ والتصنيف لا بدّ من عملية حيازة تفاعلية بين العالم والمعلوم، بين الواعي وما وعاه، بحيث يتم ما يشبه التماهي بينهما في تشكّل الهوية المعرفية.

د- **الفهم والتفقه**: بعد الإدراك يأخذ الواعي بتوليد المعرفة انطلاقًا من معطيات أدركها ومن خصوصيات إمكاناته الذهنية والنفسية، فيفيض منها المديات المرتبطة بمنطلق معلومته أو معارفه. بل إنه يستخدمها في الكشف عن أمور جديدة، قد يأخذ البعض منها طابع التغيير في شكل المعرفة أو مضمونها وخلق بيئة جديدة.

---

[1] **المعجم الوسيط**، (تركيا: المكتبة الإسلاميّة)، الصفحتان 1044 و1045.

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

[4] ابن منظور، **لسان العرب**، الطبعة الأولى (دار إحياء التراث العربي)، الجزء 15، الصفحة 348.

هـ- **الإيمان والعمل**: لا يمكن لنا الحديث عن الوعي كخصوصية معرفية مفصولة عن التبدل المضموني عند صاحب الوعي، ومثل هذا التبدل المضموني هو الذي نطلق عليه اسم الاعتقاد أو التيقن أو الإيمان. الأمر الذي يعكس نفسه على طبيعة المسلك العملي بخياراته والتزاماته وإرادة صنع الحدث والفعل.

لذلك فإن خصوصية الوعي عن كثير من صنوف المعرفة هو ارتباطه بالمحتوى الوجداني وامتداده الروحي عبر الذاكرة مع التاريخ وتوجهه نحو الواقع والمستقبل بتبصّر الفطِن المختار المريد، الطامح صنع الواقع والمستقبل بموجب قناعاته وإيمانه والتزاماته. وهذه الدلالات اللغوية لم تغب عن مسالك أهل الفكر والنظر حينما بحثوا في الوعي، والمقصود منه. وغالبًا ما ربط هؤلاء الوعي بالآخر، إذ اعتبروا أن الوعي الفعلي هو ملاحظة وفهم ما وعاه غيرك وما أدركه. بل وهو الناتج عن التفاعل الوجداني العام مع البيئة المحيطة، بحيث يولد عند الإنسان قابليات وقرارات التكيف مع واقعه. وهذا التكيُّف قد يظهر في منطقة الشعور المباشر أو في منطقة اللاشعور الفردي عند الفرد في وعيه، أو الجماعي في حركة وعي الجماعة، مما يؤسّس لبنىً في الوعي تقوم على أصول من الإحساس، والتصور، والخيال، والذاكرة والانتباه، والحركة، والقرار، والإرادة. وهو ما نطلق عليه اسم اليقظة المفتوحة، ومقصودنا من اليقظة: الوعي مع تقطعات الزمن، لأن الزمن بالنسبة إليه ساحة حضور مستديم، وميدان عبرة فعالة لأولي الألباب والبصائر – بحسب التعبير القرآني –.

وانطلاقًا من هنا يخوّل الوعي صاحبه إعطاء انطباع تجاه الأمور ينم بحقيقته عن خلفيات وعيه، بل إنه يشكل قاعدة قيمية ومعيارية للحكم على الأمور والأحداث والمواقف والسلوكيات وتحديد موقع الذات الواعية من مجمل هذه المسائل.

يبقى أن نشير ولو بنحو سريع أن الوعي بما هو قدرة وفعالية للإنسان يقع موقع الأصل ومضمون هوية قوام ذاته ورؤيته وسلوكه مع المحيط أو الآخر ليتشارك الإنسان بذلك مع عالمه الخارجي، بل والذاتي أيضًا.

ولا أقصد بالذات والعالم وكأنهما مجرّد أشياء وصور وألعاب، بل بما هما حياة وثوابت ومتغيرات وتفاعل يدخل فيه سرد الذات بالزمن من ماضٍ يقيم وكأنه اللحظة، إذ اللحظة هي انبلاج التاريخ في وعي المتأمّل، الذي يودُّ الوعيُّ فيه أن يحفظ ليفهم، ثم ليتجه نحو بناء المستقبل. واللافت في وعي المستقبل أنه حصانة الوعي عن التزييف إذا ما انبنى على قيم من الحفظ والنقد المقاوم لكل وهن وتشويه.

وهنا تدخل اللغة، والسرد، والفعل الناطق، لتكون وسائط ومحاميل الوعي بدلالاتها الكاشفة عن خباياه وحقائق ما يختلج مضامين باطنه.

ونلحظ مثل هذا التوتر الخلاّق للوعي في وصية الإمام علي بن أبي طالب (ع) لابنه الإمام الحسن (ع)، حينما يقول له: "إي بني إني وإن لم أكن عُمِّرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم، وفكَّرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم.

بل كأني بما انتهى إليَّ من أمورهم قد عُمِّرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كل أمرٍ نخيله، وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله"[5].

إن هذا الوعي يمكننا أن نسميه بـ "عقل الخبرة" وهو يقوم على توحيد اللحظة مع ما سبق من خلال التفحّص واستبيان الأمور كما تقدِّم نفسها:

1- النظر في أعمالهم مباشرة ودون مفسِّر أو مترجم أو مؤوِّل.. بحيث تنطق الأعمال عنهم.
2- التفكير في أخبارهم وما قيل حولهم وكأن الاطلاع عليهم من خلال أخبارهم ومن تتبعها، فيه مشاركة المفسّرين في عقولهم تجاه أعمال الماضين.
3- ثم السير في آثارهم لأن ما يثبت من دلالات العمل، وما يركّز في واقعهم الذي تلا هو الأبلغ في التعبير عنهم.

وهذه تعتبر المرحلة الأولى من وعي "عقل الخبرة"، إذ تنبني على المعرفة التوصيفية-التفصيلية.

ثم تأتي المرحلة الثانية وهي وعي عقل الخبرة (التقعيدي)، "كأني قد عُمِّرت مع أولهم إلى آخرهم". إذ تجمع الخبرة شتات التفاصيل وترصّ المفردات بحيث تنتج معايير الحكم في:

- كيفية إجراء أحكام خبرة العقل العملي (نفعه من ضرره).
- آليات استخراج النتائج والعبر (من كل أمرٍ تخيله).
- توظيف النتائج في خدمة البناء الإيجابي (توخيت لك جميله).
- نقد ومقاومة التأثيرات السلبية (وصرفت عنك مجهوله).

---

[5] الإمام عليّ بن أبي طالب، **نهج البلاغة**، شرح محمد عبده، (مؤسسة الأعلمي)، الجزء 3، الصفحة 41.

وما ينبغي التنبُّه له هنا أن وعي "عقل الخبرة" لا يدخل الذات في العالم المحيط، بحيث يفنيها فيه، ولا يدخل المحيط في الذات، بحيث يلغيه، بل هو يقوم على جدلية (الاتصال المفارق)، وهذا ما تشير له عبارة: "كأني... كأ..." المتكرّرة في كلام الإمام علي (ع). إذ يبقى الزمن هو الزمن، والآخر هو الآخر، والذات هي الذات. إلا أن وعي (عقل الخبرة) يسري في الكل، ويحفظ حدود الكل لأن الثابت فيه التواصل لا الإلغاء؛ والاختلاف لا المغايرة؛ وانفتاح الوعي على ثابت التجدد الدائم الخلّاق. وهو وعي المقاومة الذي يصرف كل مجهول.

لذا لاحظنا في نفس الوصية استفادات قدّمها الإمام (ع) حفظت التوتر الخلاق الذي يرفض ربط العقل بجوانب من الحدود النهائية

> واعلم يقينًا أنك لن تبلغ أملك ولن تعدو أجلك، وأنك في سبيل من كان قبلك. فخفّض في الطلب، واجمل في المكتسب فإنه رُبَّ طلب قد جرَّ إلى حرب، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًا، وما خير خيرٍ لا ينال إلا بشر، ويسر لا ينال ألا بعسر[6].

فنتائج هذا الوعي، بنيت على مثل عليا، بل مثال أعلى هو الحق. وأولدت قيمًا في المسار نحو المثل الأعلى، فضلًا عن توليدها لوعي الحقائق والأحكام:

1- محدودية الطالب وسعة المطلوب اللامتناهي، إذ يظهر فيه طلب كل طالب قبلك "لن تبلغ أملك، ولن تعدو أجلك"، إذًا عليك أن تعي "أنك في سبيل (أي نفس طريق) من كان قبلك" فأكمل ما بدأوا، وسلِّم الشعلة لمن يأتي بعدك.
2- الحكمة في صياغة الأهداف والبرامج "خفّض في الطلب، وأجمل في المكتسب، فإنه رُبَّ طلب قد جرَّ إلى حرب".
3- وعي الذات في أصل جعلها وعيًا يلزم صاحبها بالاستقلالية والثقة الحرة في المسؤولية "لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًّا".
4- أصالة الفلاح على الغلبة في تقرير المصير، ونقصد بذلك أن تحقيق أي غلبة إذا لم تستتبع بناءً فلا خير فيها "وما خير خير لا ينال إلا بشر، ويُسر لا ينال إلا بعسر".

---

[6] **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء 3، الصفحتان 50 و51.

ويحوط وعي (عقل الخبرة) هذا إيمان قبليٌ يسري في كل حكم وقيمة بعدية، إذ هو يشكّل روح عقل الخبرة الإيمانية، ومفاد هذا الإيمان قوله (ع): "واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة، وأن الخالق هو المميت، وأن المفني هو المعيد، وأن المبتلي هو المعافي، وأن الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله عليه من النعماء والابتلاء"[7].

فالذي بيده مقاليد القوة والعزة والغلبة والابتلاء والنعماء هو الله، والدنيا طوع قدرته فمهما تقلبت شؤونها فإن أمرها بيده، لذا ﴿لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[8]، بل عليك تعميق الارتباط بمصدر القوة، والسير الدؤوب نحو تحقيق الأهداف دون أن يثبِّط من عزمك شيء.

ومن هذا الوعي كان خيار المقاومة القائم على روحية قيم الجهاد التي تفرّعت على تلك الأصول من وعي عقل الخبرة للقيم والأحكام.

إذ يبيّن الإمام علي (ع) في خطبة الجهاد، أن الفلاح وإن كان الغاية، وأن البناء وإن كان الأصل إلا أن الجهاد والغلبة هما طريق لغاية هي الفلاح.

> فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنّته الوثيقة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذل وشملة البلاء، وديِّث بالصّغار والقماءة، وضرب على قلبه بالأسداد وأديل الحق منه بتضييع الجهاد وسيم الخسف ومنع الصنف[9].

فالجهاد عند الإمام (ع) هو النصرة الإلهية التي كساها الأمير (ع) ببيانه كل حلل الجنة والنعم: من أبواب الجنة لخاصّة أوليائه، ولباس التقوى، ودرع الله، وجنته الوثيقة.

فباطن الدم والنار والغبار والقتل الذي يظهر على صفحة الجهاد، هناك النور والروح والخير.

وهنا نرى أثرًا مزدوجًا في الجهاد وهو تثوير قيم الأخلاق ونقلها من العزلة (التقوى، والولاية، والزهد، والجنة...) إلى الاقتدار، ليميز الوعي النابع من عقل الخبرة الإيمانية عن أي وعي لا يتواصل مع مصدر العزة والقوة المتمثل بالله سبحانه. وأهم نتيجة تخلص إليها هذه القيم هي أن الحق بما هو غاية الغايات يضيع بتضييع الجهاد، إذ حفظ الغاية يحتاج إلى إجراءات ذات شأن بمستوى حفظ الغايات.

---

[7] المصدر نفسه، الصفحة 43.

[8] سورة **الحديد**، الآية 23.

[9] **نهج البلاغة**، مصدر سابق.

ومن أضاع الحق ضاع في هاوية الذل والضعة وأن لا تحسب له الأمم أي حساب، بل والأدهى من ذلك "ضرب على قلبه بالأسداد" فما عاد قادرًا على تمييز الحق من الباطل ولا النصر من الهزيمة، ولا الاستقلال من التبعية.

الوعي والمثل الأعلى

إذا كان بناء الوعي يقوم على معرفة الذات بما تحويه من ارتسامات العبر والتبصّر، ومعرفة الآخر بما هو إنسان وجماعة وبيئة وتاريخ، ومعرفة العالم بما هو طبيعة يتفاعل معه الإنسان فردًا أو ضمن جماعة، فإن مقوّمًا رئيسًا من مقوّمات بناء الوعي لا يمكن التغافل عنه أبدًا، لأنه حاضر لا يغيب عن الذات ولو في منطقة اللاشعور الأعمق الذي يمثل التأثير الأبعد في وعي الإنسان ألا وهو المثل الأعلى. وهناك أمران محسومان بخصوص تأثير المثل الأعلى:

الأمر الأول: أن لكل إنسان أو جماعة مثلها الأعلى الذي بحسب طبيعته تتشكل رؤية الفرد أو الجماعة للوجود والذات وقيم البناء والتفاعل.

الأمر الثاني: إن الفرد أو الجماعة بمستوى ما يَعِيان المثل الأعلى الذي يرتبطان به، فإنهما يستطيعان تقرير وضعيتهما وبناء مصيرهما. إذ إن أحداث أي عملية تغيير في حركة المسار الإنساني أو التاريخي إنما تحتاج للمثل الأعلى الموجِّه لمستقبل المسار. ومن المعلوم أن عملية التغيير وإن وقعت في الحاضر واستجلبت معها الماضي، إلا أنها وبحسب طبيعتها لا تقوم على أساس سببي كعلاقة شيء بشيء فقط، بل وعلى أساس غائي يُستحضر فيه المستقبل قبل وقوعه استحضارًا ذهنيًا وقيميًا ثم تتجه العملية نحو بناء ذاك المستقبل المأمول وتحويل المرجو إلى واقع.

إذ إن وعي الذاكرة التاريخية على أساس من هذا الوعي المستقبلي الذي أسميناه بـ (عقل الخبرة)، لا ترتبط بالتاريخ بجانبه السردي، بل بما هو مساعد ومحفّزٌ لتحقيق الهدف. لذا فالارتباط بالتاريخ لا يعود ماضويًا أو تسلفيًا، بل هو استحضار غائي مستقبلي.

وهناك جانب آخر يرتبط بمثل هذا الوعي وهو أنه يتحرك ضمن حركة وفاعلية الجماعة، وعليه أن يؤسّس لحراك مجتمعي فاعل. بهذا فإن الزمن (حركة الأحداث) والجماعة (أرضية الأحداث) سيأخذان مضامين مختلفة وفعاليات مختلفة على ضوء وعي حضور المثل الأعلى في وعي البناء الإنساني التغييري والتاريخي.

إذ التجدد والتقدّم وهجر السكونية رهن ارتباط الزمن والجماعة بوعي المثل الأعلى الموجّه لمسار المستقبل.

ولا نتحدث هنا عن مثل أعلى صالح (بالضرورة)؛ بل ما نود قوله: إن أي وعي مستقبلي هو مرتبط بوجود مثل أعلى ما.

لكننا ومن جهة أخرى يمكن أن نناقش في طبيعة المثل الأعلى لدى الجماعات.

إذ قد تجعل أمة من الأمم ذاتها ومجريات واقعها المثل الأعلى لها، ومثل هذه الأمم حتى لو استفاقت من وقت لآخر، إلا أنها تكرر نفسها دومًا، وهي بذلك قد تتقدم، لكنه تقدّم يتعرض دومًا للانهيار، وغالبًا ما يسعى هؤلاء لحفظ استمرارهم بافتعال عدو، إذ لا يستطيعون الحياة دون معاداة. ولنا في واقع الكيان الغاصب وتاريخه القديم خير مثال على إنتاج إله الشعب المختار وقيم العداوة الحافظة لوجود هذا الكيان، إذ كل آخر هو مغاير، وكل مغاير هو عدو حرب، أو صديقُ الضرورة، وقد نجد نموذجًا آخر لإنتاج المثل الأعلى، وهو المبني على أساس السلطة والسيادة. وهو نوع يحمل كل مفاعيل القوة على إيقاف أي تطور في وعي الجماعة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[10].

بحيث تفقد الجماعة القدرة على النقد والمعرفة والتقدم، فلا ترى خارج الاستتباع أمنًا أو استقرارًا. إذ إن لهذا المثل الأعلى قدرة خاصة على بث روح الهزيمة والخوف من المستقبل بتحويل المستقبل إلى مجهول بدل أن يكون غاية.

وهذا ما يفرض على حركة الجماعة واحدًا من اثنين إما الركون ومتابعة السيد الحاكم في ما يُرشد ويوجّه تحت عنوان الرغبة بالحياة ومتعة الحياة الدنيا.

وإما الانتفاض العنيف والفاصل، وهو المقاومة الطامحة لإحداث الهزيمة في هذا المثل الأعلى نفسه الذي لا يحقق التقدم إلا ضمن دائرة الاستتباع التي يرسمها. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[11].

أما القسم الثالث فهو الذي يرتبط بمثل أعلى يؤمن أنه مصدر وجوده وخير حياته وكمال معنوياته. وهو وإن كان معه حيثما كان في سره ونفسه وظاهره، إلا أنه متعالٍ عنه، يدفعه نحو الكدح إلى كماله وإطلاقه وسعته التي

---

[10] سورة **غافر**، الآية 29.

[11] سورة **العنكبوت**، الآية 41.

لا تعرف حدودًا، وهذا المثل الأعلى لا ينتجه المرء بوعيه، بل يتقوم وعيه بالإيمان به لأنه ذات حقيقية لا افتراضية أو توليدية تتماشى بحسب المفاهيم والتصورات والنزعات، ذات هي عين الحقيقة والتأثير والحياة. ومن سمات هذا المثل الأعلى أنه – بحسب الإيمان الإسلامي – ربٌّ بكل ما تحمل الكلمة من عناية في تربية الإنسان بفكره وإرادته ومواقفه عند المنعطفات، رب يترك لطابع البشرية في الإنسان أن يأخذ كل تفاعلاته، إلا أنه ينمّي فيها ما يجعل القداسة كمال البشرية. فيضع آداب وسنن صراع الترقي والتغيير ضمن الحركة الجهادية التاريخية في التكامل حتى بالنسبة للرسل والأولياء. ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لاَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَ قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[12].

هذه الآيات تفرد أمام الرسول حقائق جدليات الصراع بين الحق والباطل، وكيف أنها تستند إلى الإغواء تارةً والعنف تارةً أخرى، وكيف أن العناية الإلهية ترشد أهل الحق على الثبات حتى يضيق الباطل ذرعًا بهم، فإذا ما أقفلت السبل أمامه لجأ الباطل إلى الخيارات المجردة عن كل خُلقية وهذا يعني بداية الانحدار والتردي في سلطة كيانه، وهذه الحال سنة إلهية يشهد تاريخ الصراع على صدقيتها.

ولا تكتفي عناية المثل الأعلى هنا على مجرّد وضع السنن والإلفات إليها، بل إنها تستجر الذاكرة لضخ المعنويات في وعي إرادة الإيمان وتوليد "عقل الخبرة الإيمانية".

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[13].

ثم بعد ذلك تربط الذاكرة بوعي الواقع والواقع بوعي المستقبل والمستقبل بالمثل الأعلى الموجه ووعده بتحقيق الأهداف.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[14].

---

[12] سورة **الإسراء**، الآيات 72 إلى 77.

[13] سورة **آل عمران**، الآية 137.

[14] سورة **البقرة**، الآية 214.

وهكذا يتحول المثل الأعلى إلى قيُّوم على الذات والزمن والإنسان والمحيط. فلا يعود لأيٍّ منها سلطة الإطلاق وحق افتراس الآخر، أو نهب الذات والعالم. إذ الكل منه وإليه وما الجماعة إلا مُسْتخْلَفةٌ مُسْتأَمَنَةٌ على رعاية الحق الإلهي في الوجود والإنسان، والعالم والحياة.

وهذا المثل الأعلى الحقيقي حينما تتبناه المسيرة الإنسانية، وتوفق بين وعيها البشري والواقع الكوني الذي يفترض هذا المثل الأعلى حقيقة قائمة، حينما يتم التوفيق في اتجاه المسيرة نحو الله فسوف يحدث تغيير كمي وكيفي على المسيرة.

أما التغيير الكمي فهو أن الطريق لن يتوقف، إذ هو غير متناهٍ. وبالتالي فمجال التطور والإبداع، والنمو قائم أبدًا ودائمًا.

وبناءً عليه فسيتجاوز المسير كل الآلهة المزورة التي تقف عقبة بين الإنسان وبين وصوله إلى الله سبحانه.

ومن هنا كان دين التوحيد صراعًا مستمرًا مع كل أشكال الآلهة والمثل المنخفضة والتكرارية.

أما التغيير الكيفي فهو في إعطاء الحل الموضوعي للجدل والتناقض الإنساني – إعطاء الشعور بالمسؤولية الموضوعية لدى الإنسان؛ ذلك أن المثل الأعلى هنا هو نفسه واقع عيني منفصل عن الإنسان، وبهذا يعطي للمسؤولية شرطها المنطقي فإن المسؤولية الحقيقية لا تقوم إلا بين جهتين مسؤول، ومسؤول لديه، لذلك صنعت هذه الحقيقة رجالًا كالأنبياء لا يعرفون المساومة والمهادنة أو الملل، وبنت سياقًا جهاديًا لوعي مقاوم ما زال حتى اليوم يطرح نفسه كبديل عملي ينطوي على رسالية خلاصية للواقع الحضاري المأزوم بكل مفاعيله السياسية والعملية وقيمه المعرفية والحضارية[15].

المقاومة الإسلامية وعقل الخبرة الإيمانية

جاءت المقاومة الإسلامية ضمن ظروف من الصراعات والتحولات الكبرى في المنطقة والعالم منها:

أ- استكمال السيطرة الأمريكية-الإسرائيلية على قدرة الممانعة لدى غالبية حكومات ودول المنطقة العربية والإسلامية، وقد تبدّى ذلك بتوقيعات مذلة بين أطراف عربية وإسرائيل برعاية أمريكية استفردت بالوضع وأخرجت العالم من ساحة التأثير والتدخل الفاعل في مجرى الصراع، مما شكّل غطاءً دوليًا لهذا

[15] راجع: محمد باقر الصدر، **المدرسة القرآنية**، بتصرّف.

الانهزام الإقليمي في السياسة بعد أن شهدت المنطقة سلسلة هزائم وانتكاسات عسكرية كبرى بفعل الاحتلال والعدوان الإسرائيلي المدعوم دوليًا.

وقد أثر ذلك على وعي شعوب المنطقة التي انتقلت في بعض شرائح نخبها إلى مدافع عن هذا الواقع المستجد، في الوقت الذي انطلقت لدى غالبية هذه الشعوب المطالبة بمقاومة التطبيع مع إسرائيل، وهو شعارٌ، وإن حمل الكثير من دلالات الرفض لهذا الواقع، إلا أنه وقع فريسة الانهماك عن المقاومة العسكرية، والمقاومة الشاملة، التي ترى دورها في اجتثاث أصل الوجود الإسرائيلي في كامل المنطقة.

بل إن من بعض دلالاته نقل قسط وافٍ من المقاومة إلى داخل البيت العربي الواحد.

ب-القبض على القضية الفلسطينية، من قبل بعض الفصائل الفلسطينية وتصويرها وكأنها مجرد مسألة خاصة يحظّر على أحد التدخّل في شأنها الداخلي، بل واعتبار أن القدس هي مفردة من مفردات هذه القضية الخاصة، بعد أن كانت القدس عنوان الكرامة العربية، وضمير الروح الإسلامي، ونبض الشارع العربي من أقصاه إلى أقصاه، وهذا ما جعل انقسامًا حادًا بين الاتجاهات الفلسطينية نفسها. مما أولد انعطافةً في الذاكرة التي كانت تمثل حافظة المشروعية السياسية للعمل الفدائي الفلسطيني. وأتاح أمام الأصوات القومية والإسلامية حق الاعتراض والتصدّي، لإعادة تشكيل بناء الموقف الفلسطيني. ومن الطبيعي عند مثل هذا الحال أن يشهد الوعي المقاوم بلبلةً تحتاج إلى وقت حتى يستقر على خيارات واضحة.

ج- انحسار أي دور دولي ثنائي الأطراف، وبروز الولايات المتحدة الأمريكية على رأس نظام عالمي أحادي جديد حَكَمته عقلية حركات يمينية متطرّفة متماهية بعناصر مكوّناتها الدينية والسياسية مع الصهيونية وتفوق إسرائيل الكيان. بل وبنت هذه العقلية دورها ومهمتها التاريخية على صوت إلهي يأتيها يثير فيها جلجلة الحروب على دروب العالم والمنطقة، ويعتبر أن الإسلام هو الشر المستطير الذي ينبغي معالجة خطره إما بتفريغه من محتواه ومضمونه، أو باستئصال حضوره الفاعل.

د- بروز قلق واضطراب في الموقف والخطاب الإسلامي العام سيما عند الحركات الإسلامية عرَّضها لمخاطر الغلو في المعتقد والموقف، بالتالي غلو الوعي؛.. أو جعلها أحيانًا فريسة التقاطبات الحكومية، والمؤسسات الرسمية، والليبراليات الغربية المفتوحة على خطط وإجراءات الاستلحاق بالمشروع الاستحواذي الأمريكي.

أمام هذه التحولات والمنعطفات، كان لا بدّ من ولادة جديدة لمشروع استنهاضي جديد يحايث الأبعاد الوطنية والعربية والإسلامية، إلا أنه يحمل بذور مهما وقيم جديدة إن من حيث الأهداف والغايات، أو من حيث الوسائل والأساليب، بل من حيث الرؤية لمجمل الواقع.

ومع وصول المشروع الإسرائيلي إلى ذروة استهدافاته وطموحاته في لبنان والمنطقة ودخوله العاصمة العربية بيروت، وفرضه مسارات جديدة على الجميع، تشكّلت بذور وعي مقاوم ينطوي على وقائع ولادة من رحم الواقع بكل تكثيفه الرمزي الجامع والقلق والمضطرب.

لكنها ولادة تشي بالبحث عن السؤال التالي:

هل المقاومة المرجوة هي رد فعل ضروري على هذا الواقع السائد؛ واقع الاحتلال من جهة، والانهيار العربي من جهة أخرى؟

أم أنها مقاومة تعبِّر عن مغزى ذات حضارية تستنهض نفسها على أرضية من التحولات الاستراتيجية الكبرى، وتستند في مشروعية فعلها الجهادي على ضرورة وجود رد فعل على الواقع السائد؟

هذا في الوقت الذي يجمع فيه الكثيرون على أن المقاومة هي رد فعل لواقع ظالم يسبّبه الاحتلال للأرض، ورد الفعل تجاه أي واقع متردٍّ هو تعبير عن واحد من اثنين:

الأول: السقوط أمام المحتل والتسليم له ولو بعد محاولات من التفلت من قبضته، بحيث يتحول الاحتلال إلى واقع أوسع من حيّز المكان الذي دخل إليه.

إنه يتحوّل إلى محيط عيش للناس القاطنين، ومحور حركتهم التي تتكيّف معه ولو على نحو الجبر والإكراه.

ثم يأخذ بعدًا آخر عندما يصير قدرًا قابعًا في منطقة اللاشعور النفسي والموجِّه اللاواعي للنظرة إلى التاريخ والمستقبل. حيث إن هذا القَدَرَ الجبري الجديد يلزم الذات بالتثبت الجامد في وضعية لا تتجاوزها، إنها أشبه ما تكون حينئذٍ بكابوس يصيب الوعي بالشلل والعجز عن قدرة الحراك، يطلب الاستفاقة فلا يستطيع. الأمر الذي يضع الوعي أمام أسر خفي محكوم بجملة أمور منها:

أ- تجددٌ نكوصيٌ يأخذ شكل مقاطعة النضج، وإضراب عن النمو، وانسحاب عن سيرورة التطور والتقدم[16].

---

[16] انظر، الطرابيشي، **المثقّفون العرب والتراث**، الصفحة 31.

ب–تحول الماضي إلى مجرّد ذكرى محببةٍ تارة وملعونة تارة أخرى، إلا أنها وبكل الأحوال لا تتصل بالواقع، ولا تشكّل رصيدًا محفّزًا نحو المستقبل.

ج– الانجذاب إلى سحر شرانق الأفكار وتوهين قيمة الفعل والعمل، كأنما الأفكار القابعة في ممالك الذهن هي صانعة الانتصارات أو الهزائم.

د– الخضوع لمنطق ردات فعل متعاكسة بين استتباع لواقع إكراهي هو حضارة الغازي، أو رفضه بماضوية لا تحيل في الواقع إلا إليه.

هـ– القناعة بمركّبات نقص من ثنائيات الخوف والثورة، جلد الذات والبحث عن عنصرها المميز، دونية القهر وشتم الآخر.

و– الانحباس في لغة خطاب تحيل الأشياء إلى مجهول، فلا فاعل مباشر أو ملتزم، إذ الكل في حياد سلبي: الذات والهوية والتاريخ والذاكرة والقيم والواقع والوعي. وكأن صاحب الخطاب لا يمت لحياته بصلة، إذ كل تعبيره قائم على المجهول.

الخيار الثاني: العمل على مقاومة المحتل انطلاقًا من وعي الذات على أصول من قيم معينة، تدفع باتجاه مجابهة السائد من الواقع، ورفض أن يتحول إلى مألوف مستديم، وتعمل على رسم مسارات جديدة للواقع المأمول.

و

> معلوم أن التداول العربي في نطاق المقاومة يبيح لنا الجمع بين معانٍ أربعة أساسية هي: القوم، والقيام، والقيمة، والقومة؛ ذلك أن المقاومة ينهض بها قوم مخصوصون، وأن هؤلاء القوم يقومون بدفع شرٍّ قائم بين أظهرهم، ويتوسّلون في ذلك بقيم مثلى، عاملين على تحقيق قومة مخصوصة، فتكون القومة عبارة عن نهوض بالقيم، فالمقاوم عمومًا يتولى تجديد الوعي بالقيم[17].

إذًا هناك واقع سيء، وهناك قيمٌ مأمولة وأهداف متوخّاة، وهناك ممانعة قوم عن الاعتراف والتكيّف مع هذا الواقع، وهم يسعون بمقاومتهم لتغيير المسار على أصول من القيم التي يؤمنون بها.

إلا أن هذا المعنى المشترك، لا ينفي وجود الخصوصيات المتعلقة بأصل القيم المتبنّاة، وباختلاف الأقوام وطبائعهم، وحيثيات الظروف والأمكنة والقضايا. إذ لكل خصوصية تأثيرها الخاص في طبيعة المقاومة هنا أو

---

[17] طه عبد الرحمن، **الحداثة والمقاومة**، الصفحة 51.

هناك، وطبيعة الموقف من المحتل؛ وهل المقصود هو إزالة وجوده العسكري، أو منعه من أي تدخل بشؤون البلاد والعباد، أو إيجاد مكان متميّز في منظومته الحضارية وشبكة سياساته، أو إيجاد البديل الحضاري عنه؟. ثم ما هي القيم المطروحة وما هي حدودها؟

وما هي التجارب التي قامت بها؟ وهل تعتبر نفسها استكمالًا لحركة المقاومات التي سبقتها؟ وما علاقتها مع الذاكرة والتاريخ؟ ما علاقتها مع المحيط؟ وهل تؤمن بتعدديته أم أنها نموذج انحصاري؟. وكيف تشكّل وعيها على كل ذلك، بمسبقات عملية لا تتجاوزها؟ أم أن وعيها يتماهى مع حراك الهدف في إطار الصراع ومجابهة الواقع؟.

إن لهذه الأسئلة وغيرها كثير، دورًا أساسيًّا في تشكّل هوية وحركة ووجهة أي مقاومة.

ونحن هنا في الوقت الذي نجد فيه أن القواسم المشتركة – بين كل حركة مقاومة للاحتلال – كبيرة وواسعة، ونجد أن للخصوصيات دورها الرئيسي في خاصية أي مقاومة. فإننا نؤمن أن نجاح أي خصوصية يمكن أن يشكّل غنىً في تفاعل وعي القاسم المشترك بين المقاومات.

لذا فنحن وإن كنا معنيين بهذا المبحث في معالجة المقاومة الإسلامية بتشكّل وعيها ونظام قيمها، فإن هذه العناية لا تخرج عن إطار المساهمة في رسم مسار الخط الحضاري البديل، عن حضارة الاستحواذ الأمريكي. هذا المسار الآخذ بالتشكّل من أمريكا الجنوبية إلى إيران وإلى شعوب ودول عربية.

ولقد رأى المفكّر المغربي طه عبد الرحمن في تجربة المقاومة الإسلامية اللبنانية وعيًا بقيم منتجة لحداثة جديدة مبنية على ولادة إنسان جديد.

إذ تأتي

> على رأس العناصر التي تشكّل لب الحداثة، فعل الإبداع مع العلم أن الفعل لا يكون إبداعًا حتى يرتقي بالإنسان درجة.
>
> وغير خافٍ أن هذا هو حال المقاومة الإسلامية في لبنان فقد حققت بانتصارها على المحتل تحوّلًا وجوديًا في الأمة نقلها من طور العجز إلى طور القدرة. ولم تكتفِ المقاومة الإسلامية بأن تفتح للأمة باب الحداثة، بل أنزلتها رتبةً لم تنزلها مع حركات التجديد الإسلامي السابقة، إذ إنها أعادت للدين وظيفته المتكاملة ولقيمه أبعادها المتفاعلة[18].

[18] المصدر نفسه، الصفحتان 15 و16.

وحتى يستبين المقصود من كلامه من الواجب الإشارة إلى أن مقصوده بالحداثة هنا، ليس العصر الخاص بانبعاث الغرب وتشكّل هويته المجتمعية ومنظومته المعرفية والحضارية. إذ إن "عبد الرحمن" يفرّق بين واقع الحداثة الخاص؛ وروح الحداثة التي هي حق لكل أحد. حيث إن الحداثة هنا تصبح "عبارة عن نهوض الأمة، كائنة ما كانت. بواجبات واحد من أزمنة التاريخ الإنساني، بما يجعلها تختص بهذا الزمن من دون غيرها، وتتحمل المضي به إلى غايته في تكميل الإنسانية"[19].

ومثل هذا الفعل الحداثوي أي؛ التجديدي؛ ينطوي على شروط هي مبادئ قيم رئيسية تتوزّع منها قيم فرعية أساسية:

أحدها، مبدأ الرشد: مقتضى هذا المبدأ أن الأصل في الحداثة هو الانتقال من حال القصور إلى حال الرشد. والمراد بالقصور هنا هو التبعية الفكرية والسلوكية، فيكون المراد بالرشد هو تحصيل الاستقلال والإبداع في التفكير والسلوك.

والثاني، مبدأ النقد: وهو الانتقال من حال الاعتقاد إلى حال الانتقاد. والمقصود بالاعتقاد التسليم بالأمر من دون دليل بينما الانتقاد هو الاستدلال العقلي على الأشياء والفصل بين مجالاتها بما يتيح ضبط أسبابها وكشف آلياتها.

والثالث، مبدأ الشمول: إذ الأصل في الحداثة الانتقال من الخصوص إلى حال الشمول، سواءً أكان الخاص هو (المجال) أم (المجتمع). فيكون المراد بالشمول هو القدرة على تجاوز هاتين الخصوصيتين والتأثير في مختلف المجالات الحياتية ومختلف المجتمعات الإنسانية.

ويعتقد "عبد الرحمن" أن التطبيق الحداثي مشروط بشرطين عامين:

أحدهما، الانبعاث من الداخل.

والثاني، الالتزام بالاجتهاد: إذ يجب الاجتهاد في الاستقلال عن الغير وفي الإبداع. كما يجب الاجتهاد في الاستدلال والفصل بين الأشياء، وأخيرًا الاجتهاد في تعميم الإنجاز الاجتهادي.

---

[19] المصدر نفسه، الصفحة 20.

ومن مجمل ما مرّ فإنه لا يرى أي إمكانية تجديدية حداثوية عند حكومات عالمنا العربي والإسلامي، بل يعتبر أن الشعوب هي المؤهلة للقيام بمثل هذا الدور، وذلك من خلال مقاومتها، ووعي دورها المقاوم[20].

وهذا ما حققته المقاومة الإسلامية في لبنان "إن النموذج الإسلامي في المقاومة، متمثلًا في حرب تموز 2006، أدخل الأمة في طور فاصل من أطوار الحداثة الإسلامية التي ابتدأت يوم أن قررت الأمة أن تتولى أمرها بنفسها"[21].

انطلاقًا من هذا النموذج المقاوم، فإن فهم تشكل الوعي والقيم عند المقاومة الإسلامية، لا يرتهن للحظة ردة الفعل في مواجهة الاستعمار والاحتلال فقط؛ وإن كان هذا الاحتلال هو السبب المباشر في إطلاق شعلة المقاومة، بل إن هناك مغزًى حضاريًا خاصًا تقوم عليه هذه المقاومة نصطلح على تسميته (الاقتدار) في القيم وفي تشكل الهوية الحضارية المطلوبة. وهذا الاقتدار لا يمكن إلا أن يكون مبنيًّا على وعي (عقل الخبرة الإيمانية). وكما أسلفنا ببداية البحث أن هذه الخبرة تواقع الواقع بعبرة من ذاكرة الماضي لتستولد منه بناء الهدف والمستقبل. وما مقصودنا بالاقتدار إلّا الاستطاعة على أعمال القدرة، إذ

> القدرة هي كون القادر قادرًا، وكل مستطيع قادر وليس كل قادر بمستطيع؛ لأن الاستطاعة: اسم لمعانٍ يتمكّن بها الفاعل مما يريده من إحداث الفعل وهي أربعة أشياء:
>
> إرادته للفعل، وقدرته على الفعل، بحيث لا يكون له مانع منه، وعلمه بالفعل، وتهيؤ ما يتوقف عليه الفعل[22].

فالاقتدار هو: المكنة والاستطاعة وهي لا تحصل إلا من خلال: إرادة وعزم فاعل، والاستعداد الذاتي للقيام بالفعل، وتحضير كل الأسباب المتيحة للتنفيذ من إمكانات وخطط وسياسات، والمعرفة بطبيعة الموقف ومستلزماته.

لذا فالاقتدار المقاوم هو فعلٌ وليس حرب تنظيرات، وهو معرفة مقاصدية وتفصيلية بالأهداف والإجراءات، وخبرة بمسار السنن وحقائق الواقع دون الارتهان لتزييف من مظاهره وما يطفو على سطحه.

---

[20] انظر، **الحداثة والمقاومة**.

[21] المصدر نفسه، الصفحتان 42 و43.

[22] أبو هلال العسكري، **الفروق اللغوية**، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي، جامعة المدرسين)، الصفحة 47.

لكن يبقى أن نشير أن الاقتدار في منظومة الفعل الحضاري للمقاومة الإسلامية إذ تكوَّن كقيمة، فعلى قاعدة من وعي إيماني خاص بعقل الخبرة. لذا فرغم وضعيته الإستراتيجية، إلا أنه وكما قلنا: يأتي تعبيرًا عن مغزًى حضاريٍّ خاص.

وهو مغزىً لا ينكشف إلا باستبيان ما ينتج عنه من قيم وليدة نستحضرها من واقع ما نعيشه في تجربة المقاومة الإسلامية، وما عبّرت عنه أدبيات هذه المقاومة خاصة على لسان الناطق عنها السيد حسن نصر الله.

وإذا كان التتبّع التفصيلي لتشكّل وعي القيم عند المقاومة الإسلامية ضرورة ملحة.. فإن بعض الإشارات العامة لأركان هذه القيم هو ضرورة أيضًا.

أركان قيم وعي المقاومة الإسلامية

ارتكزت هذه المقاومة في وعيها على الجانب الإيماني بالدرجة الأساس اعتبرت أن خبرة التجربة في الميدان كانت تؤكّد على هذا العمق الإيماني المطلوب.

الإسلام كان يركّز دائمًا على وجوب أن يترسّخ الإيمان في أعماق نفس الإنسان. الإسلام لا يريد منّا فقط أن نقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأشهد أن الموت حق، وأن البعث حق، وأن القيامة حق. هو يريد منّا أن تدخل هذه الكلمات في قلوبنا وأرواحنا وأعماق نفوسنا، وبالتالي نعيش، ونتكلم، ونقول، ونفعل، ونحارب، ونسالم، ونوالي، ونعادي، ونتصرف، ونحب ونبغض على أساس هذا الإيمان.

تنزّل الآيات ليزداد المؤمنون إيمانًا لأنه حتى الإيمان هو درجات. الامتحانات الإلهية للمؤمنين ليزدادوا إيمانًا، الجهاد والمواجهة ليزدادوا إيمانًا، الوفاء بالوعد الإلهي في الانتصار ليزدادوا إيمانًا.

الله تعالى يهتم بهؤلاء المؤمنين ليزدادوا إيمانًا، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[23]. ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[24].

المحنة تزيد المؤمنين إيمانًا، وكذلك الطمأنينة والسكينة والنصر الذي ينزله الله على قلوب عباده"[25].

---

[23] سورة **الكهف**، الآية 13.

[24] سورة **الأحزاب**، الآية 22.

[25] أحمد ماجد، **الخطاب عند السيد حسن نصر الله**، الصفحتان 44 و45.

ومثل هذا الإيمان يولّد علاقة بالحقائق مبنية على قيمة كبرى هي (اليقين الواثق). "صدقوني إننا اليوم بحاجة وقبل أي شيء إلى اليقين والإيمان والثقة، الإيمان بالله ووعده ونصره، الإيمان بحقنا وقدرتنا على صنع الانتصار، اليقين والثقة بشعبنا وأمتنا والثقة بتحرير الأرض المقدّسة"[26].

فركن الإيمان يولّد قيمة اليقين، واليقين تتفرّع عنه الثقة بالوعد الإلهي بالنصر، وهذا ما يستدعي الثقة بالأمة والشعب وصناعة المستقبل.

ولو أردنا إفراد فرز قواعدي لهذا الركن لأسميناه:

الركن الأول: الإيمان بالمعية القيومية لله على الوجود والحياة والناس

لذا فعندما جاء قرار المقاومة إنما جاء من هذا المغزى الحضاري الإيماني الموصول بعقل الخبرة الإيمانية "هذه المقاومة منذ اليوم الأول كانت مقاومة لله، وقتالها ودموعها ودماؤها وسعادتها وألمها وفرحها وحزنها وتضحياتها لله. هؤلاء الذين قدّموا أولادهم وأنفسهم وأهليهم وإخوتهم وصبروا وتحمّلوا، كانوا يرون الله ويطمعون برضاه ورضوانه وبتوفيقه ونصره، ولذلك كانت المقاومة الإسلامية من أبرز المصاديق التاريخية، ومن أبرز المصاديق المعاصرة لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾"[27].

بناءً عليه ارتسمت المقاومة باعتبارها الأولوية الكبرى في حركة المجاهدين لما احتضنته من هذا المغزى الحضاري الإيماني..

"لقد أسّس السيد عباس وإخوانه مقاومة لله وضعت أمامها هدفًا جدّيًا، ولم تساوم، وجعلته الأولوية، كل شيء في خدمة المقاومة. والمقاومة في خدمة الله من أجل تحقيق النصر"[28].

وهذا ما رسم الخط البياني للأولويات، إذ هدف هذه المقاومة هو الدفاع عن أصل الدين، وعن مضامين القيم الإلهية التي ترسم للحياة والإنسان معالم مساراته. "هي معركة الدفاع عن أصل الدين"[29]، لذا فالتفاصيل لا تتحول

---

[26] المصدر نفسه، الصفحة 46.

[27] **الخطاب عند السيد حسن نصر الله**، مصدر سابق، الصفحة 54.

[28] المصدر نفسه، الصفحة 55.

[29] المصدر نفسه، الصفحة 38.

إلى أساس "ينبغي وضع كل خلافاتنا العقائدية والدينية جانبًا"[30]. فالقضايا هي الجامعة على أساس من قيم المغزى الحضاري الإيماني.

بعد هذا اليقين الواثق الذي يرسم سلّم الأولويات على أصول من وعي عقل الخبرة الإيمانية تنبع قيمة الصدق في العهد مع الله والذات والأمة. "ليس القتال هو الذي صنع النصر، القتال كان دليلًا وشاهدًا منا أمام ربنا على صدقنا، وصدقنا هو الذي أنزل النصر. النصر الإلهي أمر مشروط بالجهاد والصبر والتضحية والصدق والإخلاص. جاء النصر لأنه توافر في المقاومة وأهلها شرط اللياقة والجدارة، فالله تعالى لا يعطي النصر والعزة لمن ليس جديرًا بهما"[31].

وبهذا المعنى فإن الصدق هو قيمة تستدعي جملة قيم أخرى، بفعل العمل المقاوم.. إنها تستدعي قيمة النصر، وقيمة العزة، فالنصر لا يُنظر إليه كمجرّد حدث – بحسب عقل الخبرة الإيمانية – بل هو قيمة لا تضاف إلا إلى من يستحق ويليق به نيلها.

وكما النصر قيمة فإن الشهادة تصبح قيمة لا ينالها من طلبها، بل من استحقها في الطلب والنية والصدق والجدارة.

"الشهادة تشترك مع النبوة في أن النبوة اصطفاء الله، الله يصطفي النبيين، والله يصطفي الشهداء. الله يجتبي النبيين، والله يجتبي الشهداء، الله يختار النبيين، والله يختار الشهداء، المطلوب أن نعمل في تزكية أنفسنا وأرواحنا ومراقبة أقوالنا وأعمالنا ونوايانا لتصبح أنفسنا لائقة بدرجة الشهداء"[32].

وحتى تكتمل صورة القيم المؤسِّسة للنصر والشهادة ضمن العيش في منطق توحيد المعية القيومية الإلهية، فإن القيمة المؤسِّسة الثانية بعد الصدق، هي قيمة الوعي–المعرفة.

"شهداؤنا ومجاهدونا ليسوا طلاب موت وفناء وعدم، وهل يمكن أن يعشق الإنسان الفناء والموت الذي يعقبه المجهول؟

---

[30] المصدر نفسه، الصفحة 38.

[31] المصدر نفسه، الصفحة 72.

[32] **الخطاب عند السيد حسن نصر الله**، مصدر سابق، الصفحة 70.

شهداؤنا من موقع الإيمان والالتزام والوعي والفهم واليقين كانوا طلاب حياة، بل طلاب أعظم حياة، وكانوا باحثين عن الوجود، بل عن الوجود الحقيقي والمطلق، كانوا طلاب كمال ولذلك وصلوا إلى ما كانوا يطلبون"[33].

بعد هذا الركن الأول (المعية القيومية الإلهية) لنظام القيم الذي تولّد عن (عقل الخبرة الإيمانية) والذي فعّلته المقاومة وانبنت عليه يجيء.

الركن الثاني، وهو التوازن الجهادي

والتوازن الجهادي هنا ركن من أركان توليد القيم التي تستدعي بذل الجهد النفسي والعملي المحقق للعدالة ببعديها الروحي والاجتهادي.

وقوة الثبات بحيث لا يتزلزل المقاوم أمام نفسه وربه ﴿لِكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[34]. كما لا يتزلزل أو يتراجع أمام المخاطر والصعاب التي تعترض سبيل تحقيق الأهداف. ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[35].

ثم إن التوازن الجهادي يستدعي إعطاء الأمور والبلاد والعباد حقوقها الخاصة بها وبمستوى استحقاقها اللازم لها. فلا تطغى الدنيا على الآخرة، ولا شؤون الآخرة تنفي قضايا الحياة الدنيا، ولا يهمل المرء وجهًا من وجوه هويته وانتمائه الأسري أو العشائري أو الوطني والقومي على حساب التزامه النهج الرسالي الديني، بالوقت الذي لا يتصنّم أمام أيٍّ منهم فيجعل من العشيرة أو الوطن أو القوم وكأنها إله أو هي بحكم الإله. وهذا معنى التوازن الجهادي في تسمية المقاومة بـ (المقاومة الإسلامية).

"نحن في كلمة الإسلامية هنا لا نتحدث عن مقاومة طائفية، نحن نتحدث عن الهوية الفكرية والإيمانية لهذه المقاومة. إن هويتها الإيمانية تجعلها مقاومة فوق الطوائف، وفوق المناطق، وحتى فوق الأقطار بالمعنى القطري الضيّق. ويجعلها مقاومة تدافع عن الأمة..."[36].

---

[33] المصدر نفسه، الصفحة 70.

[34] سورة **الحديد**، الآية 23.

[35] سورة **الأنفال**، الآية 7.

[36] **الخطاب عند السيد حسن نصر الله**، مصدر سابق، الصفحة 56.

إذًا، هي مقاومة تدافع عن البيت والأسرة والعشيرة والوطن، ولكنها لا ترتهن لحساباتهم الضيقة، في الفرز بين هذه الجهة أو تلك، لأنها جعلت المدى الحيوي الحاكم لتوازنها، العلاقة مع الله، الذي بيده قيام كل شيء، وهو مع كل شيء. "فهي تقاتل في سبيل الله، ومن أجل الله وطلبًا لرضا الله واستجابة لأمره، فمع المقاومة الإسلامية أنت ستكون في قتالك أكبر من كل تلك الحسابات التي يمكن أن ينسجها الشخص أو عائلته أو منطقته أو طائفته وحتى بلده والأرض ومن فيها ومن عليها، هنا تصبح روحية المقاومة، عزم المقاومة، إرادة المقاومة، عشق المقاومة، ثبات المقاومة، صمود المقاومة، أفق المقاومة أكبر وأوسع بكثير. لذلك المنطلقون من خلفية إيمانية من خلفية إلهية هم مقاومون أشدّاء، وفي نفس الوقت رحماء"[37].

إذًا هنا وقع التوازن في مجالين:

المجال الأول: هو نفسي–ذاتي، مبني على قاعدة الآية القرآنية ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[38]. فرغم شدة المقاومة في مجابهة العدو، والتي تحدّت فيها الدنيا كلها ولم تضعف. فإنها "لا يغيب عنها أن تربّي في المجاهدين عامل المحبة والرحمة. إنّ غياب الرحمة والمحبة في تربية المقاتل هو الذي يحوّله بعد انتهاء فترة التحرير إلى عنصر تفجير في المجتمع. أما حضور بُعد المحبة والرحمة في عملية التربية للمقاتل فهو الذي يبقيه عاملًا إيجابيًا وعنصرًا فاعلًا وحاضرًا لمواصلة عمله لنفس الأهداف التي كان يعمل لها في السابق مع تبدّل الوسائل والوسائط وأساليب العمل"[39].

وهذا ما وعاه الجميع بعد تحرير المقاومة الإسلامية لغالب الأراضي اللبنانية عام 2000.

المجال الثاني هو سياسي – جهادي، إذ ترفض المقاومة الركون إلى المصالح الضيّقة، وتبقي المصلحة الحاكمة على كل شؤون الحياة هي الارتباط بالله، لذا فهي لا تضعف أمام الضربات ولا أمام الإغراءات.

كما أنها تبدع في إيجاد أرضية الانسجام بين واقعها السياسي، وآفاقها الجهادية، فالمتابع لعمل المقاومة الإسلامية في لبنان يلحظ كيف أنها التزمت الضوابط الوطنية في حركتها ومسارها. إلا أنها ورغم ذلك فتحت سبل التواصل بين البُعد الوطني والقضايا القومية والإسلامية المشتركة دون التدخل المباشر في خصوصيات الغير. وأخذت تعزّز ثقافة النموذج والتأسّي به. ووضعت نفسها نموذجًا حيًّا لكل مقاومة في المنطقة، إذ المقاومة "لا ترى

---

[37] المصدر نفسه، الصفحة 56.

[38] سورة **الفتح**، الآية 29.

[39] **الخطاب عند السيد حسن نصر الله**، مصدر سابق، الصفحة 62.

نفسها معنية بالأبعاد المادية التي يتنازع عليها الناس، فهدفها واضح، واستراتيجيتها واضحة، فهي تريد أن تقدّم المثال الحضاري للأمة، الذي يثبت أن إرادة المقاومة قادرة على تحقيق النصر"[40].

إذًا، هي تقدّم نفسها كتجربة، وهدفها كخيار قابل للتعميم مع حفظ الخصوصيات لدى كل تجربة مقاومة.

الركن الثالث، استنهاض الواقع وربطه ببناء مستقبلي تغييري

وهذا الاستنهاض يجد أمامه جملة من القيم الواقعية والذاتية:

1- "في قيم وثقافة هذه المقاومة هناك مكان أساسي لرفض العبودية لغير الله، ولرفض الظلم والقهر والاضطهاد، وما دام الاحتلال يمثل كل هذه المعاني المشينة. فلا بدّ لمن يحمل قيم الكرامة والسيادة والعز والشرف ورفض العبودية والذل أن يقاوم وإلا فهو خال من كل هذه القيم"[41].

2- "في ثقافة المقاومة طالما أنك مع الحق وتقاتل من أجل الحق لن تبالي أوقعت على الموت أم وقع الموت عليك. لن تقعدك القلة ولن تعجبك الكثرة"[42].

3- "في ثقافة المقاومة ما دمت تؤمن بما تفعل، بقداسة ما تفعل بعظمة ما تضحي من أجله، ما دمت تفعل ما تفعل من موقع الوعي والإرادة فلا تبالي بما يقال عنك في مجلس الأمن، أم في الولايات المتحدة الأمريكية، أو في وسائل إعلام العالم؛ إرهابي، مجنون، متخلف"[43].

4- في ثقافة المقاومة ليس هناك عدو لا يمكن هزمه.

5- في ثقافة المقاومة ليس هناك شيء اسمه خسائر.

6- في ثقافة المقاومة نعم هناك شيء اسمه تضحيات. هناك إحدى الحسنيين. هناك من يحمل السلاح ويمضي، بينما لا يوجد لديه أدنى شك بالنصر الآتي لإيمانه بالله ووعد الله ولثقته بالله العزيز الجبار.

من كل ذلك تنبع قيم استنهاض الأمة والناس والواقع بالارتباط بهم، وباعتبار ذلك تكليفًا إلهيًا، وتقرّبًا إلى الله بما يحب، وما يحبه الله هو هؤلاء الناس وتحقيق مصالحهم.

---

[40] **الخطاب عند السيد حسن نصر الله**، مصدر سابق، الصفحة 57.

[41] المصدر نفسه، الصفحة 60.

[42] المصدر نفسه.

[43] المصدر نفسه.

"عندما خرج مجاهدو المقاومة الإسلامية ليقدّموا التضحيات الجسيمة كانت هذه خلفياتهم ومنطلقاتهم. هم تربّوا منذ البداية؛ إنكم تدافعون عن كرامة الإنسان وعزته التي لها مكانة عالية عند الله سبحانه وتعالى. أنتم تدافعون عن أعراض الناس وأولادهم وأحفادهم"[44].

وتحقيق الأهداف أصبح أمرًا ممكنًا في ظل إرهاصات "نهاية حكم القطب الواحد، وأن النظام العالمي يسير إلى نظام متعدّد الأقطاب، وإذا وصلنا إلى ذلك سيكون للقوى الإقليمية وللشعوب التي تحترم نفسها وتملك شجاعة التعبير هامشًا أوسع لتحقيق انتصارها وتحقيق وتحصيل حقوقها المشروعة، لكن المهم أن لا نسقط أمام الخوف والوهم، وأن نكون واقعيين"[45].

إذًا الحكمة والشجاعة هما المطلب القيمي في التفاعل مع الواقع لتوجيهه نحو المستقبل بأحكام لا تضعف أمام الخوف والوهم. ولا تجازف بمجافاة الواقعية الدقيقة في معرفة الواقع، وهي المعرفة القائمة على عقل الخبرة الإيمانية.

وفي الوقت الذي اعتبرت فيه المقاومة الإسلامية أن عملها الجهادي شعلة تناقلتها الأجيال السابقة، وهي اليوم قد وصلت إليها، فإنها بهذه القناعة أعادت الحيوية لتلك التجارب ووصلت معها بذاكرة استنهاضية مندفعة عن وعي استنهاضي لواقع يريد أن يرسم للآن، وللمستقبل ثابتة مفادها "ولّى عهد الهزائم، وبدأ عهد الانتصارات".

وفي مثل هذه الثابتة استجلاء لقيمة ثقافية وسلوكية جديدة، أدخلت إضافة مركزية على ثقافة الاستشهاد.

ففي الشهادة رمزية للمقاومين ترتبط بمن سبق من الشهداء ولهم في سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام مثالًا ونموذجًا كاملًا. وهنا مكوّن الذاكرة الجهادية للمقاومة.

والشهداء هم أحياء عند ربهم يرزقون؛ ينتمون إلى عالم هو غير عالمنا؛ ويرسمون لقضايا الحق فضاءات الحفظ وقدرة الاستمرار.

وهكذا تكاد أن تتحول الشهادة إلى غاية بذاتها.

---

[44] **الخطاب عند السيد حسن نصر الله**، مصدر سابق، الصفحة 61.

[45] المصدر نفسه، الصفحة 59.

والشهادة قدرة إبداع روحي وعملي على أداء الواجب والتكليف الإلهي، في زمن كل ما فيه ظلمٌ وأفقٌ مسدود، ونهايات هي بالغالب لصالح العدو. لكن رغم ذلك يتعالى المقاوم فوق كل الظروف والحسابات ويرتحل إلى الله على درب الحقيقة ليستشهد.

أما وقد بتنا في مرحلة عصر الانتصارات والسعي لتحقيق النصر العظيم، فإننا أمام نوع وصنف جديد من قيم الوعي الجهادي، وهي قيم لا تتغاير مع قيم الشهادة، لكنها تضعها في سياقها الموصل إلى النتائج الواضحة.

إذ الرمز التكثيفي لم يعد الحسين (ع) المقتول، بل الشهيد الذي رسم لقائم الحق قيامه؛ ولو في آخر الأزمنة.

وكل توطئة لذاك الزمن لا تعبر من بوابة الحسين (ع) هي عبث ودخول في خيارات بلا مضمون.

والشهداء الأحياء عند ربهم، هم قادة مسيرة المقاومة التوّاقة لرضا الله والمجاهدة في الله وفي سبيله، روحهم باقية، وأهدافهم، وشعاراتهم، وإرشاداتهم، بحيث يصبح الشهيد هو الشاهد الحق على مسير مقاومة قامت بالله من الناس وللناس الذين أحبّهم الله.

وهم لا يخلقون الفضاءات المفتوحة لنصرة الحق فقط، بل هم يد الله التي بها ينتصر الحق وأهله، ويقيمون وقائع الأحداث ويبنون أركان دولة الحق وصولته.